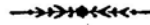


النقد الأدبي

قديمًا وحديثًا

بقلم مسنين من محلو

الدرس بالدرسة الحديوية



أحسب أن النقد الأدبي ماثي الانسان في جميع مراحل تفكيره من قديم العصر إلى حديثه ؛ فالاجتماع الانساني في كل أمة من الأمم التي جاوزت طور الهمجية يدعو إلى الرأي وإلى البيان وإقامة الحجة وترويض العقول بفنون الآداب ، ولا بد أن يحدث ذلك أثره في النفوس ، من رضا أو سخط ، ومن إعجاب أو استكراه ، ويختلف تأثير العقول باختلاف النفوس وثقافتها ودرجة استمدادها ومقدار ارتباط الكلام بخيرها أو شرها ؛ فالخطيب والشاعر والكاتب مدوا الناس بمصارة أفكارهم ، ونقلوا العقول من طور إلى طور ، وسيظلون مصاييح هداية ومجال معارك أدبية مادام العقل مطبوعاً على وزن كلامهم . والمواطن والأفكار تأخذ بحظ وافر من تراث الأدب ، وتنقي من ثمرات الأفكار ما يروقها فإذا كان الشاعر ملهماً بارع الشعر احتاج شعره إلى من يقدره ، ويزنه وزناً صادقاً فيتذوق جمال الشعر ومبلغ حظه من القوة أو الضعف ؛ فيكون ذلك داعياً إلى لفت الأنظار إليه وإلى نتاجه

وإذا كان المنشئ يخدم الأدب بإنشائه ، فالناقد ذو أثر حي في ترويح الأدب أو تربيته . وعلى كل حال فالحقيقة يخدمها أصدقاؤها وأعداؤها على السواء إذ تنجلي عنها الغشاوة ، ويجد القارئ رياضة فكرية عالية في جولان العقول وتشعب الآراء ، وذلك يأخذ بيد الأدب إلى الآفاق العالية ، ويتأثر الأديب بمحيص الآراء فيتجنب المزالق ، ويمضي صمداً إلى سماء الأدب المشرقة الوضاء ؛ فيطلع على الكون بنور أدبه ، ويذيع صيته بين الناس ؛ فكأن الأدب محتاج أشد الحاجة إلى الإنشاء والابتكار ، فهو لا يستغنى عن وصف ذلك الأثر الأدبي وتقديره

قال أرسطو : « لقد تناولت الأشعار التي ألفها أصحابها بعناية فائقة ، ولقد سألت كلاً منهم عما عنه بشعره ، فلم يكن منهم من استطاع الإجابة عن سؤالى ؛ ولقد جمعتى وإياهم مجلس ضم كثيراً من المعجبين بهم وبأشعارهم ؛ فلم يكن بين الحضور رجل إلا وهو أقدر على التحدث عن تلك الأشعار من الشعراء أنفسهم ؛ ولقد أدركت حينئذ أن الشعراء لا يكتبون الشعر لأنهم حكماء ، بل لأن لديهم طبيعة أو موهبة قادرة على أن تبت فيهم حماسة »

فلقد فرّق أرسطو بين إنشاء الأدب وبين نقده ، وبين أن نقده ضرورى لبيان قيمته ومراميه ، وأبان الفرق بين إلهام الأديب الذى يكون وقت إنشائه فى جو نفسى خاص حين تكون حمرة ذهنه متقدة يصدر عنها الشرر ، وبين الناقد الذى يضع الكلام مواضعه ، وبقيسه بمقياس الفكر والدوق والمأطفة ، وأن المقدرة على خلق الأدب تختلف عن المقدرة على تحليله تحليلاً منطقياً ، وقد فطن المتنبي إلى ذلك فقال :

أنا ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم
وكان ابن جنى يشرح ديوان المتنبي ، ثم يقرأ ما شرحه عليه ؛ فكان المتنبي يدهش لشرح بعض الأبيات ؛ لأن تحليل المعنى لم يكن ليخطر له على بال ولم يقصده ، مع أن العقل المنطقى لا يرى غير ما يراه الشارح ؛ فبين من ذلك الفرق الواضح بين ملكة الأديب وعقل الناقد ، وأن الأدب لا يستقيم إلا بهذين الأصلين : الإنشاء والنقد

والنقد الأدبى هو تقدير النص الأدبى ، وبيان درجته الفنية ، وتمييز الأدب الراقى من التافه الذى لا يعول عليه

أعتقد أنه لم تُعنى أمة من الأمم بنقد آثارها الفنية مثل ما عنى العرب ، لأنها أمة كلام وعناية بآثار العقول ، بطبيعة حياتهم ونظام معيشتهم ، ثم توارث ذلك الخلف عن السلف ، وإذا كان لكل أمة فن من الفنون تعرف به ويشتهر عنها ، فالعرب إنما يذكرون بالفصاحة والبيان ؛ فلا عجب أن عظم إنتاجهم الأدبى على توالي العصور ، واشتدت عناية الأدباء قديماً وحديثاً بنقد كلامهم والحفل له ،

وبلغوا في تقدم منزلة عظيمة بحسب اختلاف المصور والأجواء الاجتماعية والسياسية . ولا عبرة بأولئك الأدباء الذين أوصلتهم حرفة الأدب إلى المنازل الرفيعة وعاشوا على ترديد تنمات قيثارة العرب - ولوك أسائهم - وأحاديثهم ، ثم ينكرون فضل العرب على فن النقد ، ويمجدون ما بذلوه من مجهود في تقدير شعر الشعراء ، ونثر الكتاب ، وخطابة الخطباء .

وعيب نقاد العرب في نظارهم أنه كان يجب عليهم أن يمشوا ويدركوا عصر كانت وشاتوبريان وسانت ييف وتين ، ليقولوا بقولهم ، ويحللوا المواطن والافكار واليول

وإنه مهما يكن من أمر النقد الحديث وإخضاعه للنظريات العلمية ؛ فإن النقد الفطري ، والاعتماد على عفوا الخاطر ووحى النفس في تقدير نص أدبي ومنزلة أديب من الأدباء — يشترك فيه أديب باريس وبرلين ولندن ، وأديب البصرة والكوفة ودمشق وبغداد والقاهرة . وقد يفعل ذلك في النفوس لصدوره عن خير به ، ويوجه إلى الأدب الصحيح أكثر مما تفعله الكتب الضخمة في اتجاهاتها وفروضها والنقد الأدبي بمصر في العصر الحاضر لم يجد أديبا يوجهه توجيها صحيحا . ويخدم الأدب الخدمة المخلصة . فإن نقاد الأدب أغلبهم من المتصلين بالصحافة وحظهم من الأدب الأوربي أكبر من حظهم من الأدب العربي الخالص . وإلا فمن منهم قرأ دواوين الشعراء في كل عصور الأدب ؟ ومن منهم درس أصول الأدب من معينها حقاً ، ووقف عندها طويلاً ، وأفنى جذوة عمره في ذلك ؛ ثم أخذ من الأدب الأوربي بنصيب وافر ، وبعد ذلك تصدر للحكم على الأدب العربي ، وفكر تفكيراً صادقاً في تنقيته بالأدب الإفرنجي ؛ فلم يبق القديم ، ولم يتورط في الإغراق والتعصب للجديد ؟ ومبلغ علمي أن في الشام بعض أفراد من هذا النوع الذي أصفه

على أن الأدباء في مصر يتمجلون الشهرة ، ويسرعون إلى ابتغاء المكانة العالية قبل أن ينضجوا ، والسرف في ذلك خصب البلاد ، وكثرة النعمة ، وتعدد مظاهرها الجاه والثروة ، وحب الكسل ، والقرب من أصحاب السلطان . وذلك مما حط

النقد الأدبي في هذا العصر ، وجعل أكثره شهادات جاحجة في نقد الأدباء بعضهم لبعض ، لا يقصد بها وجه الأدب بل المدح والذم ، فالتقاد في مصر قضاة ظالمون ، وفي ذلك خطر عظيم نرجو أن يبرأ منه الأدب في مصر الحديثة .
والأدب في العصر الحاضر قل فيه النبوغ والوصول إلى أوج الأدب ، وتقارب الأدباء في نتائجهم ، وتجانسوا في درجاتهم ، والسبب في ذلك على ما أظن أن الأدب مشغول عن الاختصاص بالأدب ، وقصر النفس عليه ليله ونهاره إلى أسباب العيش من طرق أخرى غير الأدب المحض والسبح في بحار الآداب كل الوقت ، ولا يكون ذلك إلا إذا قدر أولو الأمر الحاجة إلى الأدب العالي ، وكافئوا الأدباء على أدبهم ، وشجعوا الإنتاج وأكثروا من المباريات ؛ فكفلوا للأدباء الحياة من طريق الأدب فحسب ، وما ذلك على مصر الناهضة بمزير .

أما النثر فقد وصل إلى منزلة راقية من بعض نواحيه ؛ فعمظت فيه الاستفاضة والبحث في نواحي الموضوع وتوفيته ، وإن كانت السياسة هي الشغل الشاغل لكتاب الصحف ، وهذا ما نأى بهم عن جودة النثر ودقة الابتكار ، وروعة الخيال ؛ فالأدب عجمالة يكتبها الكاتب ليسد بها فراغاً ، ولا يخلو من جولات فكرية حسنة ، أما كد الفكر والعمل على تغذية القراء وتنقيف عقولهم ، ففي المنزلة الثانية ، ولا يعنى بذلك إلا بعض كتاب المجلات . ولقد صدق أستاذنا المرحوم مصطفى صادق الرافعي طيب الله ثراه حين قال (إن الصحافة تبجى على فنيّة الأدب)

وأما الشعر فهو أكثر اتصالاً بالماضي منه بالحاضر ، وهو لا يمثل الحياة الحاضرة والمدينة الحديثة تمثيلاً كاملاً إلا في أبيات شاردة في أثناء القصيدة . ومع أن مصر قد تنازعتها عوامل كثيرة ، وكانت السياسة أظهر شيء في حياتها الأخيرة ؛ فإن الشعراء لم يعتادوا بعد الخروج عن أجواء المدح والوصف على الطريقة القديمة .

ولقد قرأت وأنا أكتب هذه السطور قصيدة للشاعر اللبناني حلیم دموس بعنوان (فلسطين الشهيدة) وفيها (وإن كانت على النمط القديم) أبيات تمثل السياسة الأوربية وتصفها وصفاً دقيقاً ومنها :

حذار بني قومي في الغرب عصبة تمد الدواهي ثم تملي فتكتب
 فإن كاشفتكم بالسياسة خلسة فلا تقربوها ، فالسياسة عقرب
 إذا وعدو (الغربي) فالبرق صادق وإن وعدوا (الشرقي) فالبرق غلب
 أيقسم قطر وهو يمشي لوحدة إذا فلتنح بفداد ولتبك يثرب
 وفي مصر شعراء قديرون على تحليل الحياة والعالم المأمع بصنوف العواطف
 والأفكار وأنواع الابتكار ونواحي الجمال ، ولكنهم لم يألّفوا تصوير ذلك حق
 التصوير ، ولم يتمودوا خدمة الأدب إلا من ناحية الغزل المصطنع الذي لا يصور
 عاطفة ولا يستدعي الإعجاب .

وربما سمعت المغنيين الشهيرين عبد الوهاب وأم كلثوم فانصرفت نفسي عن
 المعنى والتصوير إلى النغمات الفنية والصوت الموسيقي .
 ولقد قصر الشعراء بنات أفكارهم على التيارات المصرية ، فإن كانت في مدها
 إنجهو إليها ، وإن كان في جزرها انصرفوا عنها .

وأنا أريد أن يكون الشعر صورة صحيحة للحياة ، وفي رأي أن الشعر العربي
 يمثل حياة العرب في عصورها المختلفة إلا في العصر الحاضر ؛ فإن أردنا فهم الحياة
 واضطرابها الفكري والسياسي في العصر الأموي التمسناها في الشعر ، وإن أردنا
 أن نفهم الحياة الجديدة في العصر المماليكي التمسناها في الشعر أيضاً . أما العصر
 الحاضر فلو جمنا دواوين الشعراء وقرأناها لم تكفنا لفهم الحياة الاجتماعية
 والسياسية والاقتصادية في مصر في هذا الزمن

أما الخطابة فليست بواعثا كبواعث الشعر والنثر في كل المصور ؛ فهي بنت
 الظروف والحوادث ، وهي كيماء البحر إن عصفت بها الرياح ماجت واضطربت
 وأحدثت دويًا يسمعه القاصي والداني ، وانبعثت مع الخطابة القدرة والبلاغة
 والتصوير والتأثير ؛ وإن هدأت الرياح صار الماء ساكنًا هادئًا لا يحس أحد صوته
 والخطابة إنما يخلقها الغضب والإيمان بفكرة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية
 والناس في مصر إنما يفضون للسياسة ، لذلك أخرجت خطباء مصانع ، ولم أجد
 أحداً يفض للاقتصاد إلا طلعت حرب باشا ، وما رأيت من يفض للاجتماع

إلا فتاة متحمسة تكتب في الأهرام عن قضية الفلاح ، وتلقب نفسها (ابنة الشاطئ) ، فلقد سمعنا نخطب في بؤس الفلاح ، ووجوب التفكير في شأنه والعناية به ، فهزت أوتار القلوب بقدرتها على التصوير ونقل التأثير من نفسها إلى أنفسنا . والمحاضرات الاجتماعية فاشية في مصر ، ولكنها لا تزيد على أنها تحليل للموضوعات ، ودرس أقرب إلى العلم منه إلى الخطابة . لذلك لا تحدث في مصر دويكاً ، ولا تجاوز الآذان إلى القلوب .

النقد في العصر الجاهلي

كان الشعر أهم فنون الأدب قبل الإسلام ، وما زال يرقى حتى وصل إلى درجة الكمال ، ولا بد أن يكون النقد أثر فيه تأثيراً شديداً حتى نضج وأوفى على الغاية . أما تدوين ذلك النقد في عصور التدوين فلم يكن إلا تنفكاً مبثوثة في تضاعيف كتب الأدب ، ومقتضبات هي قل من كثر مما نقد النقاد وأخذ الشعراء بعضهم على بعض ، وإلا فآين صور المراك الأدبي الذي كان يمد كل عام في سوق عكاظ وغيرها من الأسواق ؟ وأين صور التثقيف للشعر وتربية الملكات حتى كانت أسرة زهير بن أبي سلمى كلها من الشعراء ؟ لا شك أن مجالات النقد كانت قائمة في نواحي الجزيرة ، وحلبات الشعراء كانت تعقد بين القبائل في النوادي الحين بعد الحين ، وكانت حوافز الشعر كثيرة ، وعوامل الاجادة ملحة ؛ فكانت القبيلة تقيم الولائم والأفراح إذا نبغ فيها شاعر ؛ لأنه معقد شرفها ، والدائد عن أحسابها وأنسابها ، ولقد كان العرب جد حريصين على سلامة لغتهم وفهم أسرارها لئلا تكون في القصيدة كلمة نابية أو معنى غير ملائم .

سمع طرفة بن العبد التلمس ينشد بيته :

وقد أناسي الهمَّ عند احتضاره بناج عليه الصيمرية مكدم
فقال طرفة : استنوق الجمل ، لأن الصيمرية سمكة تكون في عنق الناقة لا البعير
وأخذ العرب على المهمل بن ربيعة أنه كان يبالغ في القول ، ويدعي فيه بأكثر
من فعله ؛ ولا شك أن هذا نقد لصدق القائل ، وأنه يجب أن يكون القول صادراً

عن عقيدة ، ولذلك كانوا إذا سمعوا شاعراً أو خطيباً أجاد الكلام وبلغ النائية ، يقولون : فلان أساب المحرّ ، وطبق الفصّل . وهذه ناحية من نواحي النقد التي يهتم بها في العصر الحديث ولو حفظ لنا التاريخ ما قبل في سوق عكاظ حين أسمعت الخنساء النابغة الذبياني قصيدتها في رثاء صخر التي منها :

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
فقال لها : لو لا أن أبا بصير - يعني الأعشى - أنشدني لفضلك على شعراء
الموسم ؟ يقصد أنه لو لا أنه سبق بإصدار حكمه لفضلها - لو حفظ لنا التاريخ
الحوار الذي قد حدث لكأن أسبابها صادقة الشعور والإحساس ، بليغة
الآلفاظ جيدة المعاني

ولو نقل لنا غضب الشعراء أو رضاهم عن أبطال الموسم ، وأقوالهم في ذلك ،
لمظمت لدينا آثار النقد عند القدماء ، ولكن ما وصل إلينا لا يكفي في الحكم على
النقد في العصر الجاهلي ؛ ذلك أن هذا الطور من أطوار الحياة العربية كان فداً
في التاريخ العربي ، إذ كان العرب قابعين في جزيرتهم إلا قليلاً ، وكانت حياتهم
فطرية ، ونظام حياتهم متشابهاً ، والنفوس العربية فارغة للقول والتصال الأدبي
الذي طال عهده ؛ فلم يفتربوا عن أوطانهم العربية إلا للتجارة أو طلب الشعراء
للجزيل من المال في الحيرة حيث المناذرة ، وجلّق حيث الفساسنة ، ثم يعودون إلى
بواديههم ، ويقضون العمر الطويل فيها ؛ لذلك توافر الوقت للاختمار ، وصقل اللغة
ثم التسليم إلى لغة قريش ، وجعلها اللغة الرسمية للعرب عامة

وقد تواتر المصور الإسلامية وهم يقولون : « أشعر الناس امرؤ القيس إذا
غضب ، وزهير إذا رغب ، ، والأعشى إذا طرب ، والنابغة إذا رهب »
ولما أراد الله لهذه اللغة الكمال حق أن يحىء القرآن بها لتخلد على التاريخ ،
وتبقى ما بقيت الدنيا

وجملة القول أن النقد في العصر الجاهلي كان معتمداً على الفطرة ، ووحى
الخطاير ، وتقدير اللفظ والمعنى ، وقوة التأثير ، وملاحظة كل عيب يمكن أن يمس

القصيدة في المعنى والاستعمال وأغريض الشعر وقوافيه .

قيل إن النابغة لما قال قصيدته التي منها :

أمن ال مية رأنح أو مقتد عجلان ذا زاد وغير مروت
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغداف الأسود

لم يجرؤوا أن ينهوه إلى اختلاف حركة الروي الذي يسمى في علم العروض الإقواء ؛ فلما دخل يثرب أسموه غناء من هذه القصيدة ، ففطن فلم يعد إلى ذلك وأصلح البيت بقوله : « وبذاك تنعاب الغراب الأسود »

وأجود الشعر عندهم المملقات ، إذ هي تمثل حياة البادية وقوة الشعر تمثيلاً صحيحاً من حيث العناية بتخير الألفاظ ، ووصف كل ناحية من حياة العرب في ركن من القصيدة ؛ وقد رجح نقاد الأدب أن تسميتها بالمملقات مجازية ، فهم يسمون القصيدة الجيدة سمطاً ، والسمط هو القلادة النفيسة التي تعلق في العنق ؛ فالمملقات معناها السموط والقلائد ، وحماة الراوية هو الذي أطلق عليها المملقات ، ولعله يقصد هذا المعنى . قال أبو زيد القرشي صاحب جمهرة أشعار العرب : « هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي يسميها العرب السموط »

أما النقد الأدبي في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم فقد حفلت كتب الأدب بالكثير منه ، وجال النقاد جولات قوية نافعة فيه ، وإن كانت غير مرتبة فهي فنية وسنمرض لها في المقال التالي إن شاء الله .

« المدرسة الحديوية » مسنين حسن مخلوف